الرسالة

للإمام المطلبي
محمد بن إدريس الشافعي

١٥٠ - ٢٠٤ هـ

لما نظرت الرسالة للشافعي أذهلتني،
لأنني رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح،
فإني لأكثر الدعاء له.

عبد الرحمن بن مهدي

عن أصل بخط الربيع بن سليمان
كتبه في حياة الشافعي

بتحقيق وشرح

أحمد محمد شاكر

مكتبة دار التراث

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الثالثة

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع : ١٦٦٢٩ / ٢٠٠٥

مكتبة دار التراث

٢٢ شارع الجمهورية القاهرة - ص.ب : ١١٨٥ - ت : ٣٩١٤٢٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

هذا كتاب «الرسالة» للشافعيِّ.

وكفَى الشافعي مدحًا أنه الشافعيُّ.

وكفَى «الرسالةَ» تقريظًا أنها تأليف الشافعيِّ.

وكفانى فخرًا أن أنشر بين الناس علم الشافعيِّ.

[مع إعلاميهم نهيه عن تقليده وتقليد غيره](١).

ولو جَازَ لعالمٍ أن يُقلِّدَ عالمًا كان أولى الناس عندى أن يُقلَّدَ: الشافعى. فإنى أعتقد - غير غالٍ ولا مسرف - أن هذا الرجل لم يظهر مثله فى علماء الإسلام، فى فقه الكتاب والسنة، ونفوذ النظر فيهما ودقة الاستنباط، مع قوة العارضة، ونور البصيرة، والإبداع فى إقامة الحجة وإفحام مناظره. فصيح اللسان، ناصع البيان، فى الذروة العليا من البلاغة. تأدب بأدب البادية، وأخذ العلوم والمعارف عن أهل الحضر، حتى سما عن كل عالم قبله وبعده. نبغ فى الحجاز، وكان إلى علمائه مرجع الرواية والسنة، وكانوا أساطين العلم فى فقه القرآن، ولم يكن الكثير منهم أهل لَسَنٍ وجدَل، وكادوا يعجزون عن مناظرة أهل الرأى، فجاء هذا الشاب يناظر وينافح، ويعرف كيف يقوم بحجته، وكيف يلزم أهل الرأى وجوب اتباع السنة، وكيف يثبت لهم الحجة فى خبر الواحد، وكيف يُفصل للناس طرق فهم الكتاب على ما عرف من بيان العرب وفصاحتهم، وكيف يدلهم على الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة، وعلى الجمع بين ما ظاهره التعارض فيهما أو فى أحدهما. حتى سماه أهل مكة «ناصر الحديث». وتواترت أخباره إلى علماء الإسلام فى عصره، فكانوا يفدون إلى مكة للحج، يناظرونه ويأخذون عنه فى حياة شيوخه، حتى إن أحمد بن حنبل جلس معه مرة، فجاء أحد إخوانه يعتب عليه أن ترك مجلس ابن عُيينة - شيخ

---

(١) اقتباس من كلام المزنى فى أول مختصره بحاشية الأم (١/ ٢).

الشافعى - ويجلس إلى هذا الأعرابى! فقال له أحمد: «اسكت، إنك إن فاتك حديث بعلوٍّ وجدته بنزولٍ، وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لا تجده، ما رأيت أحدًا أفقه فى كتاب الله من هذا الفتى». وحتى يقول داود بن على الظاهرى الإمام فى كتاب مناقب الشافعى: «قال لى إسحاق بن راهويه: ذهبت أنا وأحمد بن حنبل إلى الشافعى بمكة فسألته عن أشياء، فوجدته فصيحًا حسن الأدب، فلما فارقناه أعلمنى جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم الناس فى زمانه بمعانى القرآن، وأنه قد أوتى فيه فهمًا، فلو كنت عرفته للزمته. قال داود: ورأيته يتأسف على ما فاته منه». وحتى يقول أحمد بن حنبل: «لولا الشافعى ما عرفنا فقه الحديث». ويقول أيضًا: «كانت أقضيتنا فى أيدى أصحاب أبى حنيفة ما تنزع، حتى رأينا الشافعى، فكان أفقه الناس فى كتاب الله، وفى سنة رسول الله».

ثم يدخل العراق، دار الخلافة وعاصمة الدولة[١]، فيأخذ عن أهل الرأى علمهم ورأيهم، وينظر فيه، ويجادلهم ويحاجُّهم، ويزداد بذلك بصرًا بالفقه، ونصرًا للسنة، حتى يقول أبو الوليد المكى الفقيه موسى بن أبى الجارود: «كنا نتحدث نحن وأصحابنا من أهل مكة أن الشافعى أخذ كتب ابن جُريج[٢] عن أربعة أنفس: عن مسلم بن خالد، وسعيد بن سالم، وهذان فقيهان، وعن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى روَّاد، وكان أعلمهم بابن جريج، وعن عبد الله بن الحارث المخزومى، وكان من الأثبات، وانتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس، رحل إليه ولازمه وأخذ عنه وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبى حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن جملاً ليس فيها شىء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأى وعلم أهل الحديث، فتصرف فى ذلك، حتى أصَّل الأصول، وقعَّد القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره، وعلا ذكره، وارتفع قدره، حتى صار منه ما صار».

(١) دخل الشافعى بغداد ثلاث مرات، الأولى وهو شاب سنة ١٨٤، أو قبلها فى خلافة هارون الرشيد، والثانية فى سنة ١٩٥ ومكث سنتين، والثالثة سنة ١٩٨ فأقام بها أشهرًا، ثم خرج إلى مصر.
ونص ابن كثير فى تاريخه (١٠/ ١٨٢) على أن أول قدمة قدمها الشافعى بغداد سنة ١٨٤.

(٢) انتهت رياسة الفقه بمكة إلى ابن جريج.

ثم دخل مصر فى سنة ١٩٩ فأقام بها إلى أن مات، يُعلِّم الناس السنة وفقه السنة والكتاب، ويناظر مخالفيه ويحاجُّهم، وأكثرهم من أتباع شيخه مالك بن أنس، وكانوا متعصبين لمذهبه، فبهرهم الشافعى بعلمه وهديه وعقله، رأوا رجلاً لم تر الأعين مثله، فلزموا مجلسه، يفيدون منه علم الكتاب وعلم الحديث، ويأخذون عنه اللغة والأنساب والشعر، ويفيدهم فى بعض وقته فى الطب، ثم يتعلمون منه أدب الجدل والمناظرة، ويؤلف الكتب بخطه، فيقرءون عليه ما ينسخونه منها، أو يملى عليهم بعضها إملاء، فرجع أكثرهم عما كانوا يتعصبون له، وتعلموا منه الاجتهاد ونبذ التقليد، فملأ الشافعى طباق الأرض علمًا.

ومات ودفن بمصر، وقبره معروف مشهور إلى الآن، وعاش ٥٤ سنة، ولد سنة ١٥٠ بغزة، ومات ليلة الجمعة ودفن يوم الجمعة بعد العصر آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤[١] (الجمعة ٢٩ رجب سنة ٢٠٤ يوافق ١٩ يناير سنة ٨٢٠ ميلادية، ٢٣ طوبة ٥٣٦ قبطية).

وليس الشافعى ممن يترجم له فى أوراق أو كراريس، وقد ألف العلماء الأئمة فى سيرته كتبًا كثيرة وافية، وجد بعضها وفقد أكثرها، ولعلنا نوفق إلى أن نجمع ما تفرق من أخباره فى الكتب والدواوين، فى سيرة خاصة به، إن شاء الله.

وقد يفهم بعض الناس من كلامى عن الشافعى أنى أقول ما أقول عن تقليد أو عصبية، لما نشأ عليه أكثر أهل العلم من قرون كثيرة، من تفرقهم شيعًا وأحزابًا علمية، مبنية على العصبية المذهبية، مما أضر بالمسلمين وأخرهم عن سائر الأمم، وكان السبب الأكبر فى زوال حكم الإسلام عن بلاد المسلمين، حتى صاروا يحكمون بقوانين تخالف دين الإسلام، خنعوا لها واستكانوا، فى حين كان كثير من علمائهم يأبون الحكم بغير المذهب الذى يتعصبون له ويتعصب له الحكام فى البلاد. ومعاذ الله أن أرضى لنفسى خلة أنكرها على الناس، بل أبحث وأجد، وأتبع الدليل الصحيح حيثما وجد، وقد نشأت فى طلب العلم وتفقهت على مذهب أبى حنيفة، ونلت شهادة العالمية من الأزهر الشريف حنفيًا. ووليت القضاء منذ عشرين سنة أحكم كما يحكم إخوانى بما أُذِن لنا فى الحكم به من مذهب الحنفية. ولكنى بجوار هذا بدأت

(١) ذكر المرحوم مختار باشا فى التوفيقات الإلهامية أن الشافعى مات فى ٤ شعبان وهو خطأ.

دراسة السنة النبوية أثناء طلب العلم، من نحو ثلاثين سنة، فسمعت كثيرًا وقرأت كثيرًا، ودرست أخبار العلماء والأئمة، ونظرت فى أقوالهم وأدلتهم، لم أتعصب لواحد منهم، ولم أحد عن سنن الحق فيما بدا لى، فإن أخطأت فكما يخطئ الرجل، وإن أصبت فكما يصيب الرجل، أحترم رأيى ورأى غيرى، وأحترم ما أعتقده حقًا قبل كل شىء وفوق كل شىء. فعن هذا قلت ما قلت واعتقدت ما اعتقدت فى الشافعى، رحمه الله ورضى عنه.

* * *

كتاب الرسالة

ألف الشافعى كتبًا كثيرة، بعضها كتبه بنفسه وقرأه على الناس أو قرءوه عليه، وبعضها أملاه إملاء، وإحصاء هذه الكتب عسير، وقد فُقِد كثير منها. فألف فى مكة وألف فى بغداد، وألف فى مصر، والذى فى أيدى العلماء من كتبه الآن ما ألفه فى مصر، وهو كتاب «الأم» الذى جمع فيه الربيع بعض كتب الشافعى، وسماه بهذا الاسم، بعد أن سمع منه هذه الكتب، وما فاته سماعه بيَّن ذلك، وما وجده بخط الشافعى ولم يسمعه بيَّنه أيضًا، كما يعلم ذلك أهل العلم ممن يقرءون كتاب «الأم» و«كتاب اختلاف الحديث» وقد طبع بمطبعة بولاق بحاشية الجزء السابع من الأم، و«كتاب الرسالة». وهما مما روى الربيع عن الشافعى منفصلين، ولم يدخلهما فى كتاب «الأم».

ولمناسبة الكلام عن كتب الشافعى وكتاب الأم خاصة، يجدر بنا أن نقول كلمة فيما أثاره صديقنا الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك حول كتاب «الأم» منذ بضعة أعوام، فقد تعرض للجدل فى هذا الكتاب، عن غير بينة ولا دراسة منه لكتب المتقدمين وطرق تأليفهم، ثم طرق رواية المتأخرين عنهم لما سمعوه، فأشبهت عليه بعض الكلمات فى «الأم» فظنها دليلاً على أن الشافعى لم يؤلف هذه الكتب. واستند إلى كلمة رواها أبو طالب المكى فى «قوت القلوب»، ونقلها عنه الغزالى فى الإحياء، معناها: أن كتاب الأم ألفه البويطى، ثم أخذه الربيع بعد موته فادعاه لنفسه، ثم جادل الدكتور زكى مبارك فى هذا جدالاً شديدًا، وألف فيه كتابًا صغيرًا، أحسن ما فيه أنه مكتوب بقلم كاتب بليغ، والحجج على نقض كتابه متوافرة فى كتب الشافعى نفسها. ولو صدقت هذه الرواية لارتفعت الثقة بكل كتب العلماء، بل لارتفعت الثقة بهؤلاء العلماء أنفسهم، وقد رووا لنا العلم والسنة، بأسانيدهم الصحيحة الموثوق بها، بعد أن نقد علماء الحديث سيرة الرواة وتراجمهم، ونقوا رواية كل من حامت حول صدقه أو عدله شبهة، والربيع المرادى من ثقات الرواة عند المحدثين، وهذه الرواية فيها تهمة له بالتلبيس والكذب، وهو أرفع قدرًا وأوثق أمانة من أن نظن أنه يختلس كتابًا ألفه البويطى ثم ينسبه لنفسه، ثم يكذب على الشافعى فى كل ما يروى

أنه من تأليف الشافعى، بل لو صح عنه بعض هذا كان من أكذب الوضاعين وأجرئهم على الفرية!! وحاش لله أن يكون الربيع إلا ثقة أمينًا. وقد رد مثل هذه الرواية أبو الحسين الرازى الحافظ محمد بن عبد الله بن جعفر، المتوفى ٣٤٧، وهو والد الحافظ تمام الرازى، فقال: «هذا لا يقبل، بل البويطى كان يقول: الربيع أثبت فى الشافعى منى، وقد سمع أبو زرعة الرازى كتب الشافعى كلها من الربيع قبل موت البويطى بأربع سنين». انظر التهذيب للحافظ ابن حجر (٣/ ٢٤٦).

وقد يظن بعض القارئين أنى أقسو فى الرد على الدكتور، ومعاذ الله أن أقصد إلى ذلك، وهو الأخ الصادق الود، ولكن ماذا أصنع؟ وهو يرمى أوثق رواة كتب الشافعى - الربيع المرادى - بالكذب على الشافعى، ثم ينتصر لرأيه، ويسرف فى ذلك، ويخونه قلمه، حتى ينقل عن الأم نقلاً غير صحيح، ينتهى به إلى أن يرمى الشافعى نفسه بالكذب!! فيزعم فى كتابه أن عبارة «أخبرنا» لا تدل على السماع فى الرواية، وأن الإخبار معناه أحيانًا النقل والرأى، ثم ينقل عن الأم أن الشافعى قال فى (١/ ١١٧) «أخبرنا هشيم» ويقول: «إن الشافعى لم يلق هشيمًا، فقد توفى هشيم ببغداد سنة ١٨٣ والشافعى إنما دخل إلى بغداد سنة ١٩٥». وأصل هذا الاستدراك للسراج البلقينى، وهو مذكور بحاشية الأم، ولكن ليس فى كلام الشافعى «أخبرنا هشيم» بل فيه «هشيم» فقط، وهذا يسمى عند علماء الحديث تعليقًا، وذلك أن يروى الرجل عمن لم يلقه من الشيوخ شيئًا فيذكر اسمه فقط على تقدير «قال»، أو يقول صريحًا «قال فلان». وليس بهذا بأس، بل هو أمر معروف مشهور، ولا مطعن على الراوى به. ولذلك بيَّن البلقينى الأمر، فإن لكلامه بقية حذفها الدكتور، وهى: «فلكونه لم يسمع منه يقول بالتعليق: هشيم، يعنى: قال هشيم». ولكن الدكتور زكى مبارك فاته معنى هذا عند علماء المصطلح، فحذفه، ثم زاد فيما نقل عن الشافعى كلمة «أخبرنا» ليؤيد بها رأيه الذى اندفع فى الاحتجاج له.

● فائدة:

أخطأ السراج البلقينى فى هذا الموضع، فى إيهامه أن الشافعى لم يدخل بغداد إلا سنة ١٩٥ لأنه ثبت أنه دخلها سنة ١٨٤ وسمع من محمد بن الحسن كثيرًا من العلم، كما أخطأ أيضًا فى حاشية أخرى كتبها بعد هذا الموضع (الأم ١/ ١١٨) عند قول

الشافعى «أخبرنا ابن مهدى» فقال: «هكذا وقع فى نسخة الأم أن الشافعى يقول: أخبرنا ابن مهدى، والشافعى لم يجتمع بابن مهدى». ووجه الخطأ أن الشافعى وابن مهدى تعاصرا، وكلاهما دخل بغداد، والغالب أن ابن مهدى كان يدخل الحجاز، والمعروف البديهى عند علماء الحديث أن الراوى العدل إذا قال: «حدثنا» أو «أخبرنا» كان الحديث متصلاً، وأنه إذا قال: «عن فلان» لمن ثبت لقاؤه إياه ولو مرة واحدة حمل على الاتصال أيضًا، لا يخالف أحد منهم فى ذلك. (انظر الرسالة رقم ١٠٣٢) وإنما اختلفوا فيمن يقول: «عن فلان» لشخص عاصره ولم يثبت أنه لقيه ولو مرة، فالبخارى لا يحمله على الاتصال، ومسلم وأكثر أهل العلم يجعلونه متصلاً أيضًا، وهو الراجح الصحيح، ولا يخالف أحد من العلماء فى أن الراوى الذى يقول: «حدثنا» أو «أخبرنا» لما لم يسمع فإنما هو كذاب وضاع، فالشافعى الصادق الأمين إذا قال: «أخبرنا ابن مهدى» فقد أخبره، لا يجوز فيه غير هذا.

و«كتاب الرسالة» ألفه الشافعى مرتين، ولذلك يعده العلماء فى فهرس مؤلفاته كتابين: الرسالة القديمة، والرسالة الجديدة. أما الرسالة القديمة فالراجح عندى أنه ألفها فى مكة، إذ كتب إليه عبد الرحمن بن مهدى(١) «وهو شاب أن يضع له كتابًا فيه معانى القرآن. ويجمع قبول الأخبار فيه، وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة»(٢). وقال على بن المدينى: «قلت لمحمد بن إدريس الشافعى أجِب عبد الرحمن بن مهدى عن كتابه، فقد كتب إليك يسألك، وهو متشوق إلى جوابك، قال: فأجابه الشافعى، وهو كتاب الرسالة التى كُتبت عنه بالعراق، وإنما هى رسالته إلى عبد الرحمن بن مهدى»(٣) وأرسل الكتاب إلى ابن مهدى مع الحارث بن سُريج النَّقَّال الخوارزمى ثم البغدادى، وبسبب ذلك سمى «النقال»(٤).

والظاهر عندى أن عبد الرحمن بن مهدى كان إذ ذاك فى بغداد، دخلها سنة ١٨٠،

---

(١) عبد الرحمن بن مهدى الحافظ الإمام العلم، قال الشافعى: لا أعرف له نظيرًا فى الدنيا، ولد سنة ١٣٥ ومات فى جمادى الآخرة سنة ١٩٨.

(٢) رواه الخطيب بإسناده فى تاريخ بغداد (٢/ ٦٤، ٦٥) وسيأتى فى السماعات برقم (٥٢) ورواه أيضًا البيهقى بإسناده، نقله عنه ياقوت فى معجم الأدباء (٦/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٣) رواه الحافظ ابن عبد البر بإسناده فى الانتقاء (ص٧٢، ٧٣).

(٤) الانتقاء (ص٧٢) والأنساب (ورقة ٥٧٦) وطبقات الشافعية (١/ ٢٤٩).

ولكن الفخر الرازى يقول فى كتاب مناقب الشافعى (ص٥٧): «اعلم أن الشافعى رضى الله عنه صنف كتاب الرسالة ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة، وفى كل واحد منهما علم كثير». وأيًّا مَا كان فقد ذهبت الرسالة القديمة، وليس فى أيدى الناس الآن إلا الرسالة الجديدة، وهى هذا الكتاب، وقد تبين لنا من استقراء كتب الشافعى الموجوذة التى ألف بمصر أنه ألف هذه الكتب من حفظه، ولم تكن كتبه كلها معه. انظر إليه يقول فى كتاب الرسالة (رقم ١١٨٤): «وغاب عنى بعض كتبى، وتحققت بما يعرفه أهل العلم مما حفظت، فاختصرت خوف طول الكتاب، فأتيت ببعض ما فيه الكفاية، دون تقصى العلم فى كل أمره». ويقول فى كتاب اختلاف الحديث (ص٢٥٢): «وقد حدثنى الثقة أن الحسن كان يُدخل بينه وبين عُبادةَ حِطَّانَ الرَّقَاشِيَّ، ولا أدرى أدخله عبد الوهاب بينهما فزال من كتابى حين حولته من الأصل أم لا؟ والأصل يوم كتبت هذا الكتاب غائب عنى».

والظاهر عندى أيضًا أنه أعاد تأليف كتاب الرسالة بعد تأليف أكثر كتبه التى فى «الأم»، لأنه يشير كثيرًا فى الرسالة إلى مواضع مما كتب هناك، فيقول مثلاً (رقم ١١٧٣): «وقد فسرت هذا الحديث قبل هذا الموضع». وهذه إشارة إلى ما فى الأم (٦/ ٧٧).

والراجح أنه أملى «كتاب الرسالة» على الربيع إملاء، كما يدل على ذلك قوله فى (٣٣٧): «فخفف فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ قرأ إلى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]» فالذى يقول: «قرأ» هو الربيع، يسمع الإملاء ويكتب، فإذا بلغ إلى آية من القرآن كتب بعضها ثم يقول «الآية» أو «إلى كذا»، فيذكر ما سمع الانتهاء إليه منها، ولكن هنا صرح بأن الشافعى قرأ إلى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

والشافعى لم يسمِّ «الرسالة» بهذا الاسم، إنما يسميها «الكتاب» أو يقول «كتابى» أو «كتابنا». وانظر الرسالة (رقم ٩٦، ٤١٨، ٤٢٠، ٥٧٣، ٦٢٥، ٧٠٩، ٩٥٣)، وكذلك يقول فى كتاب «جماع العلم» مشيرًا إلى الرسالة: «وفيما وصفنا ههنا وفى «الكتاب» قبل هذا». (الأم ٧/ ٢٥٣). ويظهر أنها سميت «الرسالة» فى عصره، بسبب إرساله إياها لعبد الرحمن بن مهدى(١).

(١) وقد غلبت عليها هذه التسمية، ثم غلبت كلمة «رسالة» فى عرف المتأخرين على كل كتاب صغير الحجم، مما كان يسميه المتقدمون «جزءًا» فهذا العرف الأخير غير جيد، لأن «الرسالة» من «الإرسال».